بابرنامه لظهير الدين محمد بابر

بقلم
الدكتور احمد محمود الساداتى

الأستاذ المساعد بكلية الآداب – جامعة القاهرة

من الحقائق التاريخية الثابتة أن الترك والمغول بعد أن دخلوا فى دين الله وتأثروا بالحضارة الإسلامية ، أخذوا من بعد ذلك يساهمون مساهمة فعالة فى تقدم تلك الحضارة وازدهار المدنية وفنون المعرفة الإسلامية على السواء[1].

فها هم خوانين المغول الايلخانيون أحفاد هولاكو تبلغ الحضارة الإسلامية إبان حكمهم بفارس أرقى مراتبها حتى ترجمت كتب المسلمين الفارسية فى الهيئة فى القرن الثامن الهجرى إلى اللاتينية .

وها هو تيمورلنك التركى لا تمنعه حروبه الكثيرة ، التى شملت رقعتها ما بين شمال الهند وقلب الروسيا ، من أن يجمع من حوله الصفوة من رجال العلوم والفنون والآداب فى حاضرته سمرقند التى زينها بكثير من المنشآت الفخمة ، حتى صارت تلك المدينة فى عهده مركزاً ممتازاً من مراكز الثقافة الإسلامية .

ولم يمنع تفكك ملك تيمور من بعده كثيراً من أبنائه من أن ينهجوا نهجه فى رعاية الفنون والعلوم حتى استعاد أغلب مدن بلاد ما وراء النهر وخراسان صيتها الثقافى القديم . فهذا « أُلُغ بيك » حفيده يقيم بسمرقند مرصدا كان يفد إليه العلماء والطلاب من إيران ليدرسوا معه حركات الكواكب ومسالكها ، فضلا عن مدارسة الجامعة التى أنشأها بسمرقند وبخارى وكانت تزدحم بالطلاب ، وقد كتب على واجهاتها « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وفى هراة بخراسان كان بلاط السلطان التيمورى حسين بيقرا يزدحم بمشاهير الفقهاء والمشتغلين بالفلسفة والشعراء والنقاشين

---

(١) بلغ الإسلام بأثره فى البلاد التى دخلها ما لم يبلغه غيره . فالبلاد التى كان سكانها ينتسبون أصلا إلى العرب صار لسانهم بعد الفتح إلى العربية وكذلك تقاليدهم وفنونهم ، مثال ذلك نجده فى العراق والشام والشمال الإفريقى ووادى النيل . وفيما عدا ذلك من الأقاليم فقد استخدم الأهلون الأبجدية العربية فى كتاباتهم إلى جانب فيض من الألفاظ العربية والمصطلحات العربية نفسها ، ومثال ذلك نجده فى التركية والأوردوية والفارسية . هذا ودعوى الشعوبية فى نسبة طائفة من أعلام الفكر الإسلامى من أمثال ابن سينا والزمخشرى والرازى وسيبويه وغيرهم إلى بلد بعينه ليس لها سند من الحقيقة ، فهم فى الواقع أبناء الثقافة العربية حتى لا ترى نظراء لهم بتلك البلاد فى تاريخها السابق على الإسلام ، فالثابت المسلم به « أن الحياة العقلية الهيلينية لم تمس من الحياة الفارسية إلا السطح والقشور ، بينما استطاع الدين العربى والحياة العربية أن ينفذا إلى قرارة الحياة الايرانية ولبابها » يقول بذلك نولدكه على ما أورده براون فى كتابه تاريخ الأدب فى ايران (انظر الجزء الثانى الترجمة العربية ص ١٣) .

والموسيقيين ، حتى البهلوانيين كان لهم عنده من الرعاية نصيب[1].

ولم يكن الأمير التيموري ظهير الدين محمد بابر ، صاحب بابرنامه موضوع هذا المقال ، دون من ذكرنا من أقاربه ، شغفاً بالمعرفة وكلفاً بالحضارة ، وقد نهج نهجه أبناؤه من بعده حتى ليجمع المؤرخون بأن شبه القارة الهندية لم تشهد فى تاريخها الطويل دوراً حضارياً ممتازاً مثل ذلك الدور الذى بلغته فى عصر الدولة المغولية[2] ، تلك الدولة التى أقامها بابر بالهند فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) فظلت تحكم هناك حتى استيلاء البريطانيين على تلك البلاد .

ولد بابر عام ٨٨٨ هـ = ١٤٨٣ م من أب من بيت تيمورلنك هو عمر شيخ ميرزا وأم من بيت جنكيز هى قتلق نكار خانيم[3] ، فلم يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى مات عنه أبوه فخلفه فى إمارة فرغانة تلك الرقعة الصغيرة عند الشمال الشرقى من بلاد ما وراء النهر ، تلك البلاد التى كانت قد تفتتت عقب موت تيمور إلى إمارات صغيرة متجاورة متحاربة على الدوام ، ومن ورائها المغول ، لاسيما الأوزبك منهم ، لا ينفكون عن مهاجمتها وتخطف أراضيها ما ساعدتهم الفرصة وواتتهم الظروف .

هكذا ورث الفتى الصغير مشاكل أبيه مع جيرانه ، وكانوا ما بين أعمام له من الترك وأخوال من المغول ، كما ورث عنه كذلك طموحه وميله للغزو ، فلا يمضى إلا أعواماً قليلة على عرش فرغانة حتى ينقض على سمرقند فيستخلصها لنفسه ويتخذها قصبة له كما كانت حاضرة لجده الأكبر تيمور من قبل .

على أنه ما يلبث من بعد ذلك أن يدخل فى حروب مع الأوزبك المغول وزعيمهم شيبانى تنتهى بطرده من بلاد ما وراء النهر كلها بما فيها فرغانة مسقط رأسه وضياع آماله فى إقامة ملك عريض له نظير ملك جده تيمور .

وفيما كان يتجول وفلوله باقليم حصار عند الجنوب الشرقى من بلاد ما وراء النهر إذا بحشود من عشائر الترك والمغول تقبل عليه وتأتلف معه هرباً من وجه الأوزبك فيسير بهم جميعاً إلى أرض كابل وغزنه ، وكان أحد أعمامه قد توفى عنها حديثاً ، فيدخلها سلماً ويقيم بها قرابة عشرين عاماً قبل أن تتهيأ له فرصة التوغل فى أرض الهند وبناء دولة كبيرة له بها .

وزحف الأوزبك إلى خراسان ، بعد أن استقر لهم الأمر كله ببلاد ما وراء النهر ، فقوضوا ملك السلطان حسين بيقرا ، آخر التيموريين الكبار هناك ، ثم استداروا من بعد ذلك يطرقون على بابر أبواب ملجئه فى كابل حتى ظن أن لا عاصم له منهم إلا بالفرار إلى الهند .

على أن الأنباء ما لبثت أن جاءته بما هدأ من روعه ، إذ ابتلى شيبانى خان الأوزبك باسماعيل الصفوى شاه الفرس فقضى عليه وعلى جيوشه وانتزع قسما كبيراً من أراضيه .

وبعث مانزل بالأوزبك من الهزائم الأمل من جديد فى نفس بابر لاسترداد بلاد آبائه فى ما وراء النهر ، وقوى من عزيمته ما أمده به الشاه الصفوى من فرق جنده القزلباش . ولئن رحب الأهلون بادئ الأمر بأميرهم القديم حتى دخل بخارى وسمرقند فى أشهر قلائل ، إلا أن المذابح التى أخذ يرتكبها جند الفرس

---

(١) النقاشون هم المصورون ، والبهلوانيون هم أصحاب ألعاب القوى .

(٢) يحمل بابر فى أكثر من موضع بسيرته على المغول ويتبرأ منهم معتزاً بتركيته . ومرد إطلاق هذه التسمية على أسرته هو أن أهل الهند كانوا قد درجوا على إطلاق اسم المغول على كل الغزاة الذين كانوا يفدون إلى أراضيهم ابتداء من أيام جنكيز خان ، كذلك صارت تلك التسمية مدلولا على الأبهة والعظمة دون العرق .

(٣) الخانيم هى زوجة الخان أو ابنته ، والبيكيم هى زوجة البيك أو ابنته كذلك ، وقد حرفت الأولى إلى خانم والثانية إلى بيجوم .

لحمل الناس على الدخول فى التشيع قسراً أدت آخر الأمر إلى ائتلاف الأهلين مع الأوزبك لطرد هؤلاء القزلباش من بلادهم ومعهم بابر نفسه ، وكان قد حاول بدوره أن يمنع قواد الفرس عما كانوا يرتكبونه من آثام ، فلم يستجب له منهم أحداً[1].

عاد بابر إلى كابل من جديد ، فلم يمض عليه إلا القليل حتى وفد عليه فريق من الأمراء الأفغان ، أصحاب النفوذ بالهند ، يستنجدون به لدفع مظالم سلطانهم إبراهيم اللودهى عنهم وليخلصهم من شروره .

ولم يكن حفيد تيمور ، وهو المغامر الطموح ، ليتردد أبداً فى اغتنام هذه الفرصة المواتية التى لاحت له لتحقيق آماله العريضة فى إقامة دولة كبيرة له ، والهند ، التى سبقه أجداده إليها من قبل ، هى ما هى بأراضيها الواسعة وثرائها الطائل ، وها هى أطماعه فى الغرب باتت ولا سبيل لتحقيقها إذ ثبت الأوزبك أقدامهم من جديد ببلاد ما وراء النهر كما استولى الصفويون على خراسان كلها .

والهندستان[2] حين أقبل عليها بابر غازياً لم تكن لها تلك الوحدة المتماسكة التى شهدتها على أيدى الغزنويين وخلفائهم من الغوريين والمماليك والخلجيين . ذلك أن ما أنزله الغزو التيمورى بهذه البلاد من الخراب والدمار قد نجم عنه تفكك عرا الدولة الإسلامية هناك وانفراط عقدها إلى إمارات كثيرة مستقلة .

وأتيح لبابر فى رجب من عام ٩٣٢ ، وهو فى قلة من الجند لا يتجاوز عددها اثنى عشر ألفا من الرجال ، أن يباغت خصمه سلطان دهلى عند بانى پُت ، على مبعدة أميال قليلة من حاضرته ، وكان يسير فى مائة ألف من الجند ومعه من فيول الحرب ألف . وكان مما يسر لهذا الأمير التيمورى النصر تمرسه بالقتال على خطط تيمور وتشكيلاته فضلا عن استخدامه لبعض المدافع والبنادق ، وكانت حديثة الظهور فى حومة الوغى لم يصل أخبارها إلى الهند بعد .

واستقر بابر على عرش اللودهيين فى آجرا من بعد ذلك ، فكان ثالث ثلاثة من الغزاة المسلمين الكبار الذين توغلوا بالهند وأمسكوا بمقاليد الحكم فيها .

وأول هؤلاء الغزاة الكبار هو محمود الغزنوى ، وثانيهما هو شهاب الدين محمد الغورى . ولم يكن حكام الهند المسلمين فى الغالب إلا من أبنائهم وقوادهم ومواليهم

وفى قلعة آجرا أقبل على فاتح الهند الجديد ابنه همايون ومعه ماسة كوهينور ، أكبر ماسة عرفتها الدنيا ، وهى التى سرقها البريطانيون من الهند فيما بعد وزينوا بها تاج ملكتهم فكتوريا . وكانت إحدى الأسر الهندوكية قد أهدتها إلى الأمير الشاب عرفاناً منها بحسن رعايته وحمايته لها .

وأخذ الپادشاه الجديد يغدق على رجاله مما وقع بأيديه من أموال وكنوز طائلة ، وخص بنصيب منها العلماء والفقراء فى كافة المزارات والأراضى المقدسة ، كما بعث إلى كل قاطن بكابل — مدينته المحبوبة — رجلا أو امرأة أو طفلا ، عبداً أو حراً ، بقطعة من النقود الفضية تذكاراً لفتوحاته هذه .

وأشاعت قسوة الصيف الهندى روح التذمر بين رجاله من البقاء هناك وها هم قد أصابوا من الغنائم فوق ما كانوا يأملون .

---

(١) يشيد المؤرخون الفرس بذكر الشاه إسماعيل الصفوى ولكنهم لا يقرونه فى الغالب على ما ارتكبه من شطط وعنف بالغ لحمل الناس على التشيع قهراً (تاريخ عمومى إيران لعباس إقبال — طهران — ص ٢٥٨) . هذا والمعروف أن الروسيا ظلت سنين طويلة تؤدى الجزية إلى الأوزبك ولا يعين دوق موسكو إلا على مشيئتهم ولولا الحروب المذهبية التى أنهكت بلاد ما وراء النهر وإيران واستنزفت من قوى الدولة العثمانية لما استطاع قياصرة الروس فيما بعد أن يستولوا على كل بلاد الإمام البخارى وينزلوا بسكانها المسلمين ضربات متلاحقة ، فضلا عن تهديداتهم المتكررة المعروفة لإيران وتركيا وبلاد الأفغان ، بل ولما ضاعت الأندلس بدورها كذلك من أيدى المسلمين .

(٢) يقصد بها الشمال الهندى فقط ومعناها أرض الأنهار .

على أن بابر لم يكن ليضيع هذه الفرصة التى سنحت له لإقامة ملك قوى له ، ومن قبل استجاب الإسكندر ومحمود الغزنوى لمثل ذلك فضاعت عليهما ثمار جهودهما ، فما زال برجاله حتى أقنعهم بالبقاء معه ، ليسيرهم من بعد ذلك لحرب أمراء الراجپوتانا الهنادكة ومن انضم إليهم من الأمراء الأفغان ، وكان يتزعمهم رانا سنكا ذلك البطل الراجپوتى الذى ما تزال الأناشيد والأقاصيص الشعبية تمجد بطولته بالهند إلى يومنا هذا .

وحين أحس بابر الخوف يشيع فى رجاله من لقاء هؤلاء المحاربين الأشداء أعلنها حرب جهاد وأعلن معها إقلاعهم ورجاله عن مقاربة الشراب ، فأهرق ما بالدنان من النبيذ على الأرض وحُطمت كؤوس الشراب من ذهب وفضة وجواهر إلى قطع صغيرة كانت من نصيب الدراويش والفقراء صدقة .

وبانتصار بابر على عصبة الراجبوتيين هذه عند خانوه عام ٩٣٣ هـ وهزيمته للثوار الشرقيين عند حدود البنغال عام ٩٣٥ هـ تم له اخضاع الهندستان كله لسلطانه .

ولم يمهل الأجل من بعد ذلك پادشاه الهندستان طويلا فقضى بآجرا عام ٩٣٧ هـ = ١٥٣٠ م وهو فى الخمسين من عمره ، وثوى من بعد ذلك بمدينة كابل ، أحب بقاع الدنيا إليه ، فمنها خرج ففتح من الأرض ما بين البنغال وجيحون وتركها ملكاً عريضاً لأولاده من بعده فغدوا يزيدون فى رقعته حتى تم لهم الاستيلاء على الهند كلها .

وبرغم أن بابر لم يمكث بالهندستان أكثر من سنوات ست قضى أغلبها فى حروب متواصلة فقد استطاع أن يصلح بعض نظم الحكومة ويشق كثيراً من الطرق ، بل ويقيم كذلك جملة من المنشآت لا يزال قدر منها قائماً بالهند حتى اليوم .

ويقال أن شغفه بالعمارة قد دفعه إلى أن يسأل سنان ، معمار العثمانيين المشهور ، أن يمده ببعض تلاميذه. كذلك أدى به كلفه بالطبيعة وما تبدعه إلى إقامة جملة من الرياض والبساتين جلب إليها كثيراً من النباتات وأشجار الفاكهة التى لم تكن تعرفها الهند من قبل .

ونهج أبناؤه من بعده نهجه الفنى هذا وزادوا عليه حتى لترى اليوم نمط الحدائق المغولية الهندية تقوم بطائفة من المدن الأوروبية(١) ، كما تزخر متاحف العالم الكبرى بروائع نقوش الهند وتراثها الفنى لعهدهم .

بابر نامه :

نظم بابر ديواناً بالتركية الچغتائية لم يصلنا إلا بضع أجزاء منه ، كما كتب كذلك مجموعة من المثنويات الفارسية فى الفقه تعرف باسم « مبين » وصاغ شعراً رسالة نثرية لخواجه أحرار أحد متصوفى عصره ، وتعرف باسم الرسالة الوالدية ، كما ألف كذلك كتاب المفصل فى العروض التركى . بل أنهم لينقلون عنه أصواتاً فى الموسيقى والغناء كذلك(٢) .

على أن أعظم آثاره الأدبية هى سيرته المعروفة ببابرنامه تلك التى ضمنت له شهرة أدبية فائقة عمت بلاد الترك جميعاً حتى لتعد كتاب النثر التركى التقليدى إلى اليوم . وقد كتبها صاحبها بنفسه فى لغة تركية چغتائية سهلة وأسلوب أدبى رفيع ينم عن تمكنه من أصول الثقافة الإسلامية والآداب الفارسية والعربية تمكناً تاماً .

لم يذكر لنا بابر فى سيرته هذه التاريخ الذى بدأ عنده كتابته لها ، على أنه من المقطوع به أنه طفق يراجع كتابتها من جديد وهو فى الهند ستان . والغالب أن الأجل وافاه قبل أن يفرغ من عمله هذا فظلت الأجزاء الأخيرة منها على هيئة يوميات تبعث الملل عند قارئها .

---

(١) Garratt, G. Legacy of India, pp. 229-302.

(٢) أبو الفضل بن المبارك – أكبر شاه ورقة ٢ أ مخطوط بدار الكتب المصرية .

ومن أسف أن الأصول الأولى لهذه السيرة قد ضاعت . وأكمل مخطوط لها وصلنا ، وهو الذى يعرف باسم مخطوط حيدر آباد ، يرجع تاريخ نسخه إلى عام ١١١٢ هـ = ١٧٠٠ م وقد نشرته السيدة أنيت بفريدج عام ١٩٠٥ ضمن مجموعة جب التذكارية . ونقل هذه السيرة إلى الفارسية ميرزا عبد الرحيم خان خانان بأمر السلطان جلال الدين أكبر ، حفيد بابر ، عام ٩٩٨هـ ـ ١٥٩٠ م أى بعد مرور نصف قرن على وفاة صاحبها . وتكاد تعد هذه الترجمة نسخة ثانية أصلية لهذه السيرة لفرط دقتها . على أن أكمل نسخ هذه السيرة ، سواء فى الفارسية أو التركية ، بها ثغرات تستوعب حوادث تسعة عشر عاماً متفرقة لم يهتد أحد من الباحثين بعد إلى علة سقوطها .

وفى القرن الماضى والحاضر ظهرت ترجمات لهذه السير فى بعض اللغات الأوربية .

وإن التقارب الكبير عند الذين أرخوا لبابر وعصره وما وصل إلى أيدينا من سيرته ليجعلنا نثق إلى حد كبير فى حديثه عن نفسه فى سيرته حين يقول بأنه لا يهدف إلا إلى الصدق فيما يكتب ولا يجرى قلمه بغير الحق فيما يخط ، فهو حين يتحدث بالخير أو بالسوء عن قريب أو صديق أو عدو ، أو يذكر قدراً من فضائلهم أو رذائلهم لا يبغى من وراء ذلك إلا تقرير الواقع واثبات الحقائق المجردة دون أدنى ميل أو هوى[1] .

والحق أنه فى حديثه عن نفسه أو عن غيره لم يحاول أن ينكر فضيلة لأحد أو يخفى رذيلة ، فصور فى سيرته النفس الإنسانية على طبيعتها بما فيها من خير وشر .

فهو لا يخفى مثلا ولعه بالشراب واقباله وأصحابه عليه إقبالا شديداً حتى كانت دنانه تحمل إليه من كابل وما وراءها ، ويفصل لنا ما كان يجرى فى مجالس شرابه من ضروب اللهو والمجون والتطارح بالأشعار ، فلم يترك ذلك كله إلا حين شرع فى حرب رانا سنكا ، ليتهافت من بعد ذلك على تعاطى المعجون (الأفيون) فى ادمان شديد حتى لا تكاد يومياته الأخيرة تخلو من الإشارة إلى تناوله له .

وهو حين يحمل على عمه السلطان محمود ميرزا صاحب سمرقند لما عرف عنه من الغلظة والقسوة لا ينكر عليه حسن إدارته لملكه وحرصه على أموال حكومته .

كذلك تراه يعرض علينا ، فى تلاحق وتواضع ، مراحل كفاحه العجيب منذ ولى عرش فرغانة وهو فى الثانية عشرة من عمره حتى جلس على عرش الهند وهو فى العقد الخامس من عمره ، وما صادفه فى ذلك كله من محن قاصمة ، وما خاضه من معارك متلاحقة أدت به جميعها إلى ألا يقضى شهر رمضان عامين متتالين بمكان واحد أغلب سنى حياته .

ويحرص بابر فى سيرته كذلك على أن يفصل لنا من أمر معاركه الكثيرة التى خاضها فى دقة تامة ، فلا يتحدث عن نظم جيشه فحسب بل ويثنى كذلك على كل المبرزين من أبطاله فرداً فرداً . وهو بعد ذلك يقارن مثلا بين فتحه لسمرقند وفتح السلطان حسين بيقرا لمدينة هراة ، كما يقارن كذلك بين فتحه للهندستان وفتوحات من سبقوه إليها كمحمود الغزنوى ومحمد الغورى على قلة جنده وضخامة جيوشهم .

كذلك لم يكن ليضيره أن يتحدث تفصيلا عما نزل به من هزائم مريرة وما تعرض له على أثرها من متاعب ومحن حتى اضطر مرات عديدة إلى أن يضرب فى الأرض على غير هدى وحيداً شريداً وقد تنكر له أكثر أقربائه وأقرب أصدقائه إليه. حتى إذا ما أقبلت الدنيا عليه تقاطر هؤلاء جميعاً عليه ، فاذا هو لا يتردد فى وصلهم جميعاً فى مودة وتعاطف ، وفيهم من قتل ذوى رحمه وتعرض لأسرته بكل سوء . وبرغم صنيعه

(١) بابرنامه ورقه ١ ، ٢ مخطوط بيفريدج بدار الكتب المصرية .

هذا ترى فريقا منهم يجنح إلى التآمر عليه من جديد وهو فى عقر داره[1].

ويتحدث بابر عن تاريخ أسرته فيبدأ يذكر جده الأكبر تيمور فخوراً بأعماله ومنشآته وآثاره ، ويفصل لنا من بعد ذلك أخبار أبنائه وأحفاده بل ومعاصريه كذلك منهم وما كان لهم من نشاط ثقافى وحضارى ملحوظ ، حتى إذا ما وصل بحديثه هذا إلى معاصره وابن عمه السلطان حسين بيقرا نراه يخرج علينا ببيان فياض ممتع عمن كان يجتمع عند هذا السلطان من رجال العلوم والفنون والآداب . وهو حين يتحدث عن الفقهاء منهم يذكر مختلف مذاهبهم وما دونوه من المصنفات ، وحين يتحدث عن الشعراء منهم ، ومن بينهم عبد الرحمن جامى وعلى شير نوائى ، لا يكتفى بذكر ما نظموه من أشعار فحسب بل ويتعرض لهم بالنقد كذلك فى بعض المواضع . وكذلك يفعل مع الموسيقيين ، وما استنبطوه من الأصوات ، والنقاشين وما أبدعوه من نقوش ، وكان من بين هؤلاء بهزاد الذى يعده النقاد من بين أعاظم المصورين لعصره[2].

وما يبدو فى حديث بابر هذا من تمكنه فى مختلف فنون المعرفة وإلمامه الواسع الغزير بفروع الفنون والآداب ، هو أمر يستطيع القارئ لسيرته أن يتبينه فى أكثر من موضع بها . وهو بعد صاحب مكتبة خاصة قيمة كبيرة ، وله قيم عليها كان يدعى عبدالله كتابدار ، وصلاته وثيقة بأغلب علماء عصره . أما وصف بابر لبلاده والبلاد الأخرى التى دخلها فلا يسع المطلع عليه إلا أن يقر له بالدقة والإفاضة . فهو لا يدع شيئاً يعرفه فى هذا الشأن أو يصل إلى علمه إلا ويذكره . ففى حين يعدد لنا أسماء الرياح التى تهب على إقليم كابل ويقرر أنه هو أول من أدخل زراعة قصب السكر هناك إذا هو يذكر لنا أن أهل الهند يطلقون على ما عدا بلادهم من الأقاليم اسم خراسان مثلما يعرف العرب غيرهم من الأمم باسم العجم .

وعلى هذا تراه حين يصف سمرقند يتحدث عن موقعها الجغرافى وأصل تسميتها ، وتاريخها وعروق سكانها وما ظهر بها من العلماء وما يغلب فيها من المذاهب والفرق ، كما يصف كذلك أسواقها ومتاجرها وما يقوم بها من حرف وصناعات وما يزينها من منشآت ومدارس ومساجد .

كذلك وصف بابر الهندستان وصفا دقيقاً مفصلا استوعب كل ما وقع عليه نظره فيها أو سمعه عنها . فهى عنده عالم قائم بذاته يختلف اختلافاً تاماً عن كل الأقاليم التى عرفها ، سواء فى طبيعة أرضه ومناخه وأنهاره وجباله ووديانه وغاباته وأنواع النبات والحيوان به أو من ناحية عروق السكان وعاداتهم وطبائعهم وألسنتهم وعقائدهم . وهو حين يفصل لنا من أمر ذلك كله يحدثنا كذلك عن التقويم الشائع عندهم والتوقيت الذى يسيرون عليه والمكاييل والمقاييس التى يستخدمونها مؤكداً ما عرف عن أهل هذه البلاد من ملكة قوية فى الحساب .

ونهج أبناء بابر وأحفاده من بعده نهجه فى الغالب فى تدوين سيرهم ، وهى تعد ثبتاً قيما لتطور الحضارة الإسلامية الهندية التى بلغت درجة كبيرة من الرقى فى تلك البلاد التى ظلوا يحكمونها قرابة قرون ثلاثة .

النموذج الأول :

وصف سمرقند : ليس فى العالم المسكون كله إلا مدنا قليلة تمتاز بموقع حسن كموقع سمرقند وإقليمها ، فهى تقع فى الإقليم الخامس عند خط عرض ٣٩,٣٧ وخط طول ١٩,١٩ . والمدينة تسمى سمرقند كما يعرف إقليمها باسم ما وراء النهر . ولما كانت هذه المدينة قد استعصت على كل عدو فلذلك عرفت

(١) بابرنامه ورقة ١١ .

(٢) لهذا المصور لوحات متفرقة بمتاحف أوروبا ، كما يوجد بعض منها بدار الكتب المصرية .

باسم المدينة المحفوظة . هذا وقددخلها الإسلام أيام أمير المؤمنين عثمان ، وذلك على يد قثم بن عباس ، وقبره عند البوابة الجديدة ، ويعرف باسم مزار شاه (ضريح الشاه) .

ومدينة سمرقند قد بناها الإسكندر . وقبائل الترك والمغول هم الذين أطلقوا عليها اسم سمير كند . وقد اتخذها تيمور حاضرة له ، ومن قبله لم يجعل منها أى ملك كبير قاعدة له . وقد أمرت بقياس السور حول حصونها فكان محيطه عشرة آلاف وستمائة خطوة .

وسكان سمرقند جميعهم سنيون مستمسكون بدينهم قوامون على الشرع . ولم يحدث منذ عصر النبى الأكرم حتى اليوم أن ظهر فى إقليم من الأقاليم جملة من الأئمة والفقهاء مثل أولئك الذين ظهروا ببلاد ما وراءالنهر . ومن بين هؤلاء الرجال الشيخ أبومنصور أحد أئمة المتكلمين[1] ، وهو من أبناء محلة ماتريد بمدينة سمرقند . وكان بالمدينة فرقتان من المتكلمين هما الماتريدية والأشعرية ، ومؤسس الفرقة الأولى هو الشيخ أبو منصور هذا . كذلك كان من بين مشاهير العلماء ببلاد ما وراء النهر صاحب صحيح البخارى خواجه إسماعيل خرتنك[2] ، ثم صاحب الهداية[3] ، وهو مؤلف فى مذهب الإمام أبى حنيفة ، ولا ضريب له أو نظير . وهو من أبناء مرغينان التى تدخل ضمن حدود بلاد ما وراء النهر وإن كانت تقع على الحافة القصوى للإقليم الخصب الحافل بالسكان .

وفاكهة سمرقند متعددة الأصناف ، ويمتاز من بينها العنب والقاوون والتفاح والرمان بجودتها ووفرة ثمارها . وتشتهر سمرقند على وجه الخصوص بصنفين من الفاكهة هما التفاح ونوع من العنب يعرف باسم الصاحبى .

(١) الماتريدى وهو من علماء القرن العاشر الهجرى وله مؤلف باسم « بيان وهم المعتزلة » فى الرد عليهم .

(٢) هو الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل ، وهو من أبناء محلة خرتنك .

(٣) هو الفقيه برهان الدين المرغينانى من علماء القرن السادس الهجرى .

وشتاء سمرقند قارس ولكن ما يسقط بها من الثلج هو دون ما يسقط بكابل ، ومناخها على العموم لطيف وإن كان صيفها لا يقارن بالصيف فى كابل كذلك .

وفى سمرقند وضواحيها كثير من البساتين والمنشآت التى تنسب إلى تيمور وإلى ألغ بيك. وقد بنى تيمور بداخل الحصن قصراً فخماً يتكون من أربعة طوابق يعرف باسم « كوك سراى » ، وإلى جانبه تقوم بالمدينة كثير من المنشآت العظيمة من بينها الجامع الكبير عند البوابة الحديدية داخل السور . وهو بناء ضخم من الحجر جلب له تيمور جملة من النحاتين من الهندستان . وقد نقش على واجهته فوق المدخل الآية الكريمة « وإذ يرفع إبراهيم القواعد . . » بخط واضح كبير يستطيع الوافد على المسجد أن يقرأه فى يسر وهو على مسيرة كروه منه[1] .

وإلى الشرق من سمرقند تقوم روضتا راق راق ودلكشا .

وتضم هذه الأخيرة جوسقاً كبيراً ازدانت جدرانه بمجموعة من النقوش تمثل حروب تيمور لنك فى الهندستان .

ومن بين المنشآت التى أقامها ألغ بيك ميرزا المدرسة والخانقاه التى تقع بداخل أسوار سمرقند . وباب الخانقاه عظيم الحجم حتى يكاد لا يكون له نظير فى الدنيا. وإلى جوار المدرسة والخانقاه تقوم مجموعة من الحمامات الراقية تعرف باسم حمامات الميرزا وأرضيتها مغطاة بحجارة من كل نوع مزخرف . وليس لها نظير فى خراسان كلها .

(١) الكروه يساوى ميلا ونصف الميل .

كذلك يقوم على منحدرات تل كوهك منشأة أخرى جديرة بالذكر هى المرصد . وقد جهز بآلات الرصد ، وله طبقات ثلاث . وقد وضع ألغ بيك فى هذا المرصد جداوله الفلكية المعروفة بالزيج الكوركانى ، وهى التى يعمل بها فى أيامنا هذه ولا يكاد يستخدم غيرها . وكانت الجداول الفلكية المتداولة قبل ظهور جداول ألغ بيك هى الجداول الايلخانية التى قام بضبطها خواجه نصير[1] أيام هولاكو فى مرصد بُنِى بمدينة مراغه . وكان هولاكو يعرف أيضاً باسم الإيلخانى .

هذا ولم تعرف الدنيا أكثر من سبعة من المراصد أو ثمانية ، من بينها المرصد الذى أقامه المأمون وصدرت عنه الجداول المعروفة باسم الزيج المأمونى . كذلك كان من بينها مرصد بطليموس[2] ، ثم مرصد آخر بنى بالهندستان أيام راجا بكرماجيت وهو هندوكى من أوجين ودهار بمملكة مالوه التى تعرف اليوم باسم ماندو . ولا يزال الهنادكة يستعملون حتى اليوم تلك الجداول التى وضعت فى مرصدهم ويرجع تاريخها إلى أربعة وثمانين وخمسمائة وألف عام مضت . والنقص فيها هو أكثر مما فى غيرها على وجه العموم .

ويقوم بأدنى تل كوهك فى ناحية الغرب حديقة تعرف باسم باغ ميدان تتوسطها عمارة فخمة من طابقين تعرف بذات الأربعين أسطونا ، أعتابها وعمدها كلها من الحجر . وقد أقيم عند الأبراج الأربعة بأركان البناء منائر أربع يعرج إليها عن طريق تلك الأبراج . وفى كل جزء من أجزاء البناء ترى الأعمدة وقد تفنن الصناع فى صنعها ، ففيها المجدول وفيها ما عولج بالحفر أو بطرائق فنية أخرى .

وفى داخل سمرقند بناية قديمة أخرى تعرف باسم مسجد لقلقة ، ذلك أنه ما من امرئ يطأ أرض المسجد تحت القبة إلا ويسمع لوطئه صدى ، وهو أمر غريب لم يجل سره أحد بعد .

وسمرقند مدينة أنيقة معجبة . ومن أهم ما تتميز به على غيرها من البلدان الأخرى هو تجمع التجارة الواحدة فى سوق تختص به فلا تختلط صنوف المنتجات المختلفة بعضها مع البعض الآخر فى مكان واحد . وعوائدها ورسومها حسنة معتدله ، أما مخابزها فممتازة ، كما يشتهر طهاتها بالحذق والتفنن فى الطهى .

وأحسن أصناف الورق فى الدنيا هو ما يرد من سمرقند[1] . والورق المعروف باسم الجواز يرد من من « كان كل » التى تقع على شاطىء النهر الأسود الذى يعرف أيضاً باسم نهر الرحمة ، كذلك تنتج سمرقند الورق القرمزى الذى يصدر إلى كافة الأنحاء .

النموذج الثانى :

عن الهند : إن الإنسان ما يكاد يعبر حدود الهندستان فى ناحية الغرب حتى يرى معالم هذه البلاد واضحة متميزة قوية توحى من فورها بعظم تباينها عما عند جيرانها .

والهندستان تعتمد أراضيها وزراعاتها فى السقى على الأنهار وروافدها ، فلا قنوات عندهم أو ترع أو مصارف . وقد صدهم عن إنشائها هطول الأمطار التى تأتى بها الرياح الموسمية ، وهى عماد سقيهم فى أماكن شتى ، وهم يختزنون منمائها الكثير .

وحساب الليل والنهار عند الهنود يختلف عن نظيره عند غيرهم من الأمم ، فالشعوب فيما عداهم يقسمون الليل والنهار إلى أربعة وعشرين قسما ، أما هم فيقسمونها إلى ستين قسما ، يدعى كل واحد منها « غرى » وفترته أربع وعشرون دقيقة . كذلك يقسمون اليوم إلى

(١) هو نصير الدين الطوسى .
(٢) هو بطليموس الجغرافى .

(١) أول ما عرف العرب الورق وصناعته كان بسمرقند .

أقسام أربعة يعرف كل قسم منها باسم « بهر » وهو الساعة الزمنية الهندوستانية .

وفى كل مدينة من مدن الهند الكبرى طائفة تعرف باسم « غريالى » وهم الميقاتيون ، وعدتهم صفحة من النحاس ومطرقة من الخشب ، وهم يلازمون ساعة مائية بمكان عال مخصوص بذلك فيقرعون غريالهم كلما امتلأ كأس الساعة أو فرغ قرعاً سريعاً متتابعاً تنبيهاً للناس ، ثم يردفون ذلك بدقات بطيئة تبين الوقت لهم .

ووحدة الوزن فى الهندستان هى « الماشة » وكل خمس منها تعادل مثقالا واحداً . أما معيار الجواهر والأحجار الكريمة فهو « نانك » ويعادل أربع ماشات .

وملكة الحساب عند أهل الهندستان قوية واضحة ، فكل مائة ألف عندهم هى « لك » وكل مائة لك هى « كرور » وكل مائة كرور هى « أرب » وكل مائة أرب هى « كرب » وكل مائة كرب هى « نيل » وكل مائة نيل هى « بدم » وكل مائة بدم هى « سنك » . وضخامة هذه الأعداد تقوم فى الغالب دليلا على عظم ثرائهم .

على أنهم لا يعرفون الخيل المسومة ولا الطعام الطيب والفواكه الجيدة أو المـــاء المثلج ، وليس لديهم حمامات أو مغاسل ، ولا يعرفون الشموع حتى لتراهم يستضيئون بمسارج الزيت فتعج بيوت كبرائهم وسراتها بمئات منها .

أما أبنيتهم ، ففضلا عن سوء تصميمها وتجردها من الجمال فهى لا تتواءم مع بيئتها أبداً . وهم لا يمدون الماء إلى دورهم فى القنوات ولا يجرونه كذلك إلى الحدائق ، فخلت قصورهم وبساتينهم من ذلك كله .

ويسير عامة الفلاحين ورجال الطبقة العاملة منهم شبه عراة إلا مما يستر عورتهم وهو « لنكوتى » يشدونه حول خواصرهم ، ويعلو عند النساء حتى يغطى الصدور فيدعى « لنكى » .

ومناخ الهندستان فى فصل الأمطار لطيف . أما أمطارها فغزيرة جداً حتى لتفيض سهولها كالأنهار وتجرى فى الأراضى التى ليس بها عيون للماء أو مجار . وتتكثف الرطوبة فى هذا الفصل حتى لتصيب كل ما تصادفه بالتلف ، سواء فى ذلك الأبنية أو الأثاث أو الملابس والورق .

ويتخلل فصل الأمطار هبوب شديد محمل بالأتربة يسمونه « آندهى » وتتعذر الرؤيا بسببه بعض الأحايين حين يشتد .

ولا يخلو الشتاء والصيف مع ذلك كله من أوقات لطيفة ، إلا أن حر الصيف الهندى ، حين يشتد ، لا يطاق ولا يقارن فى ذلك بغيره .

والأيدى العاملة العادية بالهندستان متوفرة فى كل مهنة أو حرفة إلى درجة كبيرة ، وهم يتوارثون الحرف عن آبائهم وأجدادهم ويورثونها أبناءهم بدورهم

وقد استخدم تيمورلنك فئة كبيرة من النحاتين الهنود فى بناء مسجده الكبير بمدينة سمرقند .

النموذج الثالث :

رجال العلوم والفنون عند السلطان حسين بيقرا بهراة .

« إن عصر السلطان حسين ميرزا ليعد دون شبهة من أزهى عصور الحضارة فقد اجتمع له بخراسان وبمدينة هراة على الخصوص الصفوة من أهل الفضل الممتازين الذين كان جل همهم وغرضهم الأسمى أن يصلوا بالفنون ، التى وقفوا أنفسهم على الاشتغال بها ، إلى أعلا درجات الكمال .

العلماء والمتصوفة : كان من بين هـــؤلاء الأعلام مولانا عبد الرحمن جامى[1] الذى لم يكن له

(١) هو أعظم شعراء التصوف الفرس فى القرن التاسع الهجرى ومن أشهر كتبه نفحات الأنس وبهارستان .

فى عصره ضريب سواء فى العلوم الظاهرة أو الباطنة . أما شعره فهو معلوم مشهور وأما صفاته فهى من السمو والعلو بحيث لا قبل لى بحصرها أو الحديث عنها ، وإنما أبغى من وراء تخليد ذكره والاشادة بفضله التيمن والبركة .

ثم شيخ الإسلام سيف الدين أحمد من أحفاد مولانا سعد الدين التفتازانى[1] ، وقد لبثت مشيخة الإسلام بخراسان وقفاً عليهم أجيالا متعاقبة . . وكان هذا الشيخ فضلا عن ورعه وتقواه مبرزاً فى علوم العربية والعلوم النقلية . ويقال عنه أنه لم يتخلف عن صلاة الجماعة مرة واحدة طوال سبعين عاماً . وقد استشهد عند استيلاء الشاه إسماعيل على مدينة هراة دون أن يعقب ذرية من بعده .

أما مولانا الشيخ حسين فقد ذاعت شهرته منذ أيام السلطان أبى سعيد ميرزا[2] وامتدت إلى زمن السلطان حسين ميرزا فلذلك ذكرته هنا . وقد كان فذاً فى علوم الحكمة والعلوم العقلية وعلم الكلام فضلا عن قدرته فى الاستنباط والشرح وكان كذلك من بين المقربين المختارين عند السلطان أبى سعيد ميرزا حتى لم يكن يبرم أمراً دون رأيه ، كما لم يقلد منصب المحتسب أحد مثله . وقد لحق بهذا العالم الفذ كثير من المهانة عند السلطان حسين ميرزا بسبب تقريب أبى سعيد له من قبل .

هذا وقد تولى ملازاده ملا عثمان التدريس وهو فى الرابعة عشرة من عمره أيام ألغ بيك . وهو من قرية جوخ فى لواء لهوكر باقليم كابل . وكان يلقب بالملا ابن أمه . وحين خرج من سمرقند ووجهته البيت الحرام مر بهراة فاحتجزه السلطان حسين ميرزا عنده . وقد كان على علم غزير لا يجاريه فيه أحد من أهل زمانه .

(١) من علماء القرن الثامن .

(٢) هو جد بابر لأبيه .

وأجمع كثيرون على بلوغه مرتبة الاجتهاد وإن كان هو نفسه لايدعيها . كذلك كان يمتاز بحافظة قوية حتى أثر عنه قوله « كيف ينقل المرء ثم ينسى ما نقله » . أما مير مرتاض فقد كان ضليعاً فى الحكميات والمعقولات وقد غلب عليه لقب مرتاض لكثرة صيامه . وبلغ به شغفه بلعب الشطرنج أنه كان حين يصادف اثنين من مهرة لاعبيه يبارى واحداً منهما وهو ممسك بتلابيب الآخر حتى لا ينصرف قبل منازلته له بدوره .

كذلك كان من جملة هؤلاء الأعلام ملا مسعود شيروانى وعبد الغفور لالا . وكان هذا الأخير من مريدى مولانا عبد الرحمن جامى وتلاميذه . وقد قرأ كثيراً من مصنفات جامى وكتب شرحاً على نفحاته . وهو فضلا عن تضلعه فى علوم الظاهر كان على معرفة غزيرة بعلوم الباطن . كما كان كذلك على تواضع جم ملحوظ حتى لم يكن ليتردد فى أن يشرح بعض المسائل الدينية لأى ملا . وكان إذا علم بمكان درويش لا يهدأ باله حتى يصل إليه ويأنس برؤيته . وكان ملا عبد الغفور مريضاً عندما زرت خراسان فعدته بنفسى وذلك عند زيارتى لضريح الملا (جامى) . وكان يقيم إذ ذاك بمدرسة الملا . وقد مات بعد ذلك بأيام قليلة من مرض كان يعانيه .

أما المحدث مير جلال الدين فلم يكن له فى علم الحديث نظير بخراسان كلها ، وهو شيخ طاعن فى السن لا يزال على قيد الحياة حتى اليوم .

أما مير عطاء الله فقد كان ضليعاً فى العربية . وقد كتب بالفارسية رسالة جيدة فى علم القافية ، ولكن يعيبها أن أمثلتها كلها من شعره ، فهو يعقب على كل مسأله بقوله « كما هو مشاهد فى هذا البيت من نظمى » وقد عارضه البعض برسائل قيمة . كذلك ألف كتاباً قيما آخر فى صناعة الشعر اسمه « بدائع الصنائع » على أنه لم يكن مستمسكاً بأصول دينه كما ينبغى .

ومن هؤلاء أيضاً القاضي اختيار ، وكان يجرى القضاء على خير وجه ، وقد كتب رسالة جيدة فى الفقه ، كما جمع جملة من النصوص فى تفسير القرآن الكريم ، وحين قابلت الأمراء (من آل بيقرا) عند مرغاب كان هذا القاضي ومحمد مير يوسف فى صحبتهم فقدموهم لى . وتناول الحديث بيننا موضوع الخط البابرى[١] ، فبعثت فى طلب مفرداته ورسمتها لهم وطلب القاضي أن أفصل له طريقه كتابته ففعلت ، ولم يتمكن فى نفس الجلسة من أن يقرأه ويلم بقواعد رسمه فحسب بل لقد جرى به قلمه كذلك .

أما محمد مير يوسف فكان من تلاميذ شيخ الإسلام وقد خلفه فى منصبه . وكان القاضي اختيار يتصدر بعض المجالس فى حين يتصدر محمد مير يوسف البعض الآخر ، ولكنه انصرف آخر الأمر بكليته إلى الاهتمام بشئون الجندية التى شغف بها شغفاً زائداً ، حتى لم يعد يرى عنده فى غيرها علم معلوم يتحدث به أو فهم مفهوم[٢] يتكلم فيه . ومع هذا فلم يكن له فى فنونها تفوق . وأدى به اشتغاله بذلك الأمر إلى ضياع ماله ونفسه وأسرته ، وقد كان على التشيع .

الشعراء وأصحاب الفنون : هذا وكان من بين الشعراء فى بلاط السلطان حسين ميرزا ، مولانا عبد الرحمن جامى الذائع الصيت وشيخم سهيلى وحسين على طفيلى جلاير ، وقد جرى ذكرهم فى الحديث عن حاشية السلطان حسين وبيكواته .

كذلك كان من بينهم الشاعر آصفى ، وكان أبوه وزيراً . ومن هنا كان تخلصه آصفى [٣]. ولم تكن أشعاره يعوزها الطابع المميز أو الفكرة وإن خلت من العشق والحماسة . وكثير ما كان هذا الشاعر يتفاخر بأنه لم ينظم غزلياته ليجمعها الناس وإنما لتجرى على ألسنتهم . ولعله كان متكلفاً فى حديثه هذا ، وقدجمع غزلياته أصدقاؤه وذوو قرباه . وفيما عدا غزلياته فشعره الآخر قليل . وقد لازمنى عند زيارتى لخراسان .

ومنهم أيضاً بنائى الهروى ، وكان أبوه يدعى الأستاذ محمد سبز بناء ، ومن هنا كان تخلص الشاعر بلقبه هذا . أما غزلياته ففيها وشى وحماسة ، وقد نظم ديواناً ، وهو صاحب مثنويات كذلك ، وقد تحدث فى إحداها عن فوائد الفاكهة ، وهو من البحر المتقارب ولكن صياغته تافهة وسقيمة . كذلك له مثنويات من البحر الخفيف ، أحدهما قصير والآخر أطول منه ، وقد أكمل نظمه أواخر أيامه . هذا وقد كان بنائى فى بادئ أمره غير متمكن فى علم الموسيقى حتى كان على شيربيك يعيره كثيراً بجهله فيها . وحدث فى إحدى السنوات أن قضى الميرزا الشتاء فى مرو وبصحبته على شيربيك ، فتخلف بنائى فى هراة وعكف على دراسة الموسيقى وتقدم فى تحصيله حتى استطاع قبل حلول الصيف أن يلحن صوتاً . وحين آب الميرزا مع الصيف إلى هراة غناه فى حضرته مع موسيقى من تأليفه ، فأثار بذلك دهشه على شيربيك وأثنى عليه . وألف كذلك قطعاً موسيقية عدة منها : نورنك ، وأقشام نورنك ، وبالداى نقش ، وجميعها من مقام راست . وخاصم هذا الشاعر ، على شيربيك وثبت أمامه فى عناد مما سبب له كثيراً من المتاعب حتى انهارت مقاومته آخر الأمر ، واضطر إلى النزوح إلى العراق وآذربيجان ، ولكنه عاد إلى هراة ثانية بعد وفاة مضيفه يعقوب بيك وكان قد أكرم وفادته . واستمر بنائى فى هراة على سخره ومزاحه لا يدع لخصمه فرصة يناله فيها . وأدى به إمعانه فى السخرية بالناس إلى أن أخرج مرة ثانية من هراة فقصد سمرقند .

(١) هو ضرب من نسخ التعليق ابتكره بابر بنفسه وأمر فكتبت به بعض المصاحف بعث بها إلى الحرمين .

(٢) يستخدم بابر فى كتابته بعض عبارات وألفاظ عربية حرصت على إيرادها بصورتها ما استقام المعنى معها .

(٣) كان وزير النبى سليمان يدعى آصف .

هذا ولما كان على شيربيك قد ابتكر كثيراً من الأشياء النافعة واللطيفة ، فان كل من كان يبتكر شيئاً جديداً فى فنه أو حرفته إذ ذاك ويبغى له الرواج والإقبال ، كان يذيع نسبته إلى الذوق الشيرى . ولا أدل على تعلق الناس بذوق على شيربيك ومحاكاتهم له من أنه خرج يوماً على الناس وقد عصب رأسه بمنديل لأذى كان بأذنه ، فاذا القوم يتهافتون على تقليده فيعصبون رؤوسهم فى الغداة على طريقته ، وإذا النساء بدورهن يتخذن من المنديل الأزرق عصابة للرأس . وقد ذاع هذا الزى منسوباً إلى على شير . وحين كان بنائى يتهيأ لمغادرة مرو إلى سمرقند أمر بصنع سرج لأتانه على طراز غير مألوف وأذاع نسبته إلى على شير أيضاً . وراج استعمال هذا النوع من السروج بين الناس ولا يزال مشهوراً إلى اليوم .

ومن هؤلاء الشعراء كذلك عبدالله مثنوى كوى (منشد المثنوى) وكان من مدينة جام . وهو ابن أخت الملا (جامى) وكان تخلصه الشعرى « هاتفى » . وقد نظم بعض المثنويات مقابل الخمسيات عارض بأحدها هفت بيكر وسماه هفت منظر . أما تيمور نامه فقد عارض بها سكندرنامه . هذا ويعد « ليلى ومجنون » من أشهر مؤلفاته وإن كانت جودته لا تضارع شهرته .

* * *

هذا وقد كان ببلاط السلطان حسين ميرزا طائفة من الخطاطين ، إلا أن السلطان على مشهد كان أقدرهم جميعاً فى خط نسخ التعليق ، وقد نسخ كثيراً من الكتب للميرزا ولعلى شيربك ، فكان ينسخ للميرزا ثلاثين بيتاً من الشعر فى كل يوم ولعلى شيربيك عشرين .

أما النقاشون (المصورون) فقد كان بهزاد أرفعهم شأناً . وكان فى الواقع مصوراً أنيقاً جداً إلا أنه كان لا يجيد تصوير الوجوه الشابة التى لا لحى لها . كذلك كان يزيد فى حجم الرقبة كثيراً ، ولكنه كان يتقن تصوير الوجوه الملتحية[1] .

أما شاه مظفر فقد كان يتقن إبراز الملامح فى تأنق ، كما كانت لمساته فى تصوير الشعر فنية بديعة ، ولكن الاجل لم يمتد به طويلا فقضى وهو بسبيله إلى الشهرة وذيوع الصيت .

أما الموسيقيون فلم يكن فيهم من يجيد العزف على القانون مثل خواجه عبدالله مروانى . وكان قل محمد عودى يجيد العزف على الغجك (اشبه بالقيثارة) أيضاً وقد زاد فى أوتارها ثلاثة . ولم يكن يجاريه أحد من الموسيقيين فى كثرة ما لحن من بشارف بديعة .

كذلك كان شيخى نايى يجيد العزف على العود والغجك أيضاً . وقد ظهر نبوغه فى النفخ فى الناى منذ كان فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره . وقد نفخ فى نايه بحضرة بديع الزمان ميرزا لحناً بديعاً . وحاول قل محمد أن يعزف على الغجك ذات مرة ففشل . وما إن برر فشله بفساد الغجك حتى تناولها شيخى منه وعزف عليها اللحن المقصود فى تمام وإبداع وبلغ من تمكن شيخى فى الموسيقى أن الناس كانوا يروون منه أنه حين كان يستمع لأى لحن يعزف كان يسمى هذا اللحن من فوره وينسبه إلى صاحبه . على أنه هو نفسه لم يضع ألحاناً كثيرة ، وما حفظ الناس له لا يزيد على لحنين أو ثلاثة .

كذلك كان من بين هؤلاء الموسيقيين شاه قلى غجكى ، وكان عراقياً وفد إلى خراسان ، وقد رفعته ألحانه إلى مراتب الشهرة . وقد لحن بشارفاً وتواشيحاً وأصواتاً .

هذا كما كان حسين عودى يتأنق فى عزفه وتلحينه

---

(١) وهى لنظامى الكنجوى من شعراء الفرس فى القرن السادس الهجرى .

(١) تنتشر لوحات بهزاد فى متاحف الفنون الكبرى ويعدونه من المدرسة الرمزية . وبلغ من اهتمام أبناء بابر بالفنون أن كان حفيده السلطان أكبر يقيم ندوات أسبوعية للموسيقيين والنقاشين ببلاطه بالهند

وبلغ من براعته أن كان يؤدى لحناً كاملا على وتر واحد من عوده . ومما يؤخذ عليه أنه كان شديد التكلف والتمتع حين يطلب إليه أن يعزف . وحدث ذات مرة أن طلب إليه شيبانى خان أن يعزف له ، فأقبل بعد تمنع ممض عزفاً رديئاً على آلة تالفة معتذراً فى ذلك بسهوه عن إحضار معزفه معه . هنالك أمر به شيبانى فتلقى بالمجلس عدة صفعات على قفاه . وإن تك حسنة تذكر لشيبانى فهى صنيعه فى ذلك اليوم . ذلك أن سلوكاً مثل سلوك حسين هذا يجب أن يقابل بأشد من هذا العقاب .

وكان غلام شادى كذلك من الملحنين الموسيقيين . وهو ابن المطرب شادى وكان عازفاً كذلك ، وإن لم يبلغ فى العزف درجة من ذكرتهم من مهرة العازفين ، وقد لحن أصواتاً كثيرة لا يضارعه فى روعتها إلا القليل . وقد بعث به شيبانى خان آخر الأمر إلى محمد أمين ، خان قازان ، فانقطعت أخباره عنى منذ ذلك الحين .

أما مير عزو فكان ملحناً لاعازفاً ، وكانت ألحانه على قلتها بديعة . كذلك كان بنائى ممن اشتغلوا بالتلحين ، وقد خلف أصواتا وألحاناً بديعة كثيرة .

هذا وكان البهلوان محمد بو سعيد رجلا فرداً فى المصارعة ، كما كان شاعراً بدوره كذلك . وقد ألف كثيراً من الألحان والأصوات كان أجملها لحناً من مقام جاركاه . وكان لطيف الصحبة حسن المعاشرة . وما وصل إليه من اتقان ونبوغ فى مختلف ألعاب القوى كان موضع إعجاب من الجميع ودهشة .

